النصيحة

إن الأخلاق التى تدفع إلى الرقى والنجاح دفعا وتؤدى إلى الفوز والفلاح حتما هى القوى النفسية التى يعبر عنها علماءُ النفس بالملكات المستقرة فى النفوس، فهى التى تطبع الإنسان فى أية مسألة من مسائل الحياة بطابعها، فمن كانت عنده ملكة الصدق يصدق دائماً، ومن كانت عنده النصيحة لا يتخلف عن بذلها، ومن كانت عنده ملكة الشجعة لا يجبن أبدا.. وهذه الملكات تكتسب بالتربية والمران والإعداد، وهذا الميدان الذى يتفاضل الناس فيه ويرتفع بعضهم على بعض درجات..

والمجتمع الإسلامى الواسع أحوج ما يكون إلى أخلاق فاضلة تهذب سلوك الأفراد والجماعات، وتقوى الروابط، وتزيل الاختلاف الذى قد ينشأ بين الأفراد والجماعات. ولقد كان من فضل الله على الأمة الإسلامية أن كفل لها أمور الخير ويسر لها الوحدة الكاملة، والرابطة القوية، والتجمع الهائل.. وذلك بما أرسل لها من رسول كريم هو محمد عليه الصلاة والسلام الذى اختصه الله بالرحمة الشاملة.. وبما أعطاها الله من كتاب كريم هو القرآ الكريم .. وبما كلفها الله من عقيدة تلزم المسلم ببذل الخير فى صدق وإخلاص حتى تتكون ثقة الأفراد بعضهم مع بعض على أسس من الود والصفاء والمحبة والإخاء والتعاون والتآزر.

ليقوم حال المجتمع الإسلامى، ويتجه إلى البناء، وتثبيت دعائم الحضارة والأمن وتوطيد أركان الإخاء. والدعوة الإسلامية فى ذاتها: دعوة من شأنها تقوية الصلة بين الناس ، ورفع لواء السلام بين المسلمين، وبين المسلمين والإنسانية وبعث الألفة والانسجام، لذا وضح الإسلام فى دعوته وإرشاداته، وتوجيهاته المحافظة على النصيحة والتناصح، ليظل المجتمع الإسلامى قوياً.. وها هو القرآن الكريم يقرر بصفة قاذعة حاسمة أن بين المؤمنين أخوة دائمة لا تنقطع ما داموا مؤمنين. قال تعالى فى سورة الحجرات.. ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا**

اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾[١] قال القرطبى فى كتابه «الجامع لأحكام القرآن» أى أُخوة فى الدين والحرمة لا فى النسب ولهذا قيل أُخوة الدين أثبت من أُخوة النسب فإن أُخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين وأُخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب، وفى الحديث المتفقُ عليه جاء فى رياض الصالحين أن رسول الله ﷺ قال : «مثل المؤْمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[٢]. روى ابن كثير وقال : تفرد به أحمد ولا بأْس بإسناده، قال رسول الله ﷺ: «إن المؤْمن من أَهل الإيمان بمنزلة الرأْس من الجسد يأْلم المؤْمن لأَهل الإيمان كما يأْلم الجسد لما فى الرأْس»[٣].

والمسلمون فى ظل الإيمان تربطهم وحدة هائلة: وحدة المفاهيم الأساسية والاعتقادية فى الحياة الدنيا، وفى الحياة الآخرة، ووحدة فى المثل الأَخلاقية ووحدة القيم والمقاييس الخلقية.. والإسلام لم يقف بالمسلمين عند هذا الحد، بل دعا إلى مفاهيم وأَخلاق من شأْنها أَن تزيد غراس الوحدة الإسلامية، عطاءً ونماءً وقوة.

وانطلاقا من المفاهيم الإسلامية التى دعا إليها الإسلام الحنيف، جعل الإسلام العصبيات بأَنواعها سواءٌ كانت إقليمية، أَو قومية أَو قبلية، عرفية، أَو نزعة سياسية، جعلها فسوقا، وخروجا عن أَدب العقيدة ويقول أَحد علماء الفكر الإسلامى «إن رابطة العقيدة فى الاسلام - وهى رابطة فى المبادىء والمثل العليا والأُخوة على صعيد هذه المثل العليا فى الحق والخير وتلك التعاليم - هى أَعلى وأَقوى من رابطة الدم والنسب والمساكنة فى الوطن، والمشاركة فى القومية. وهذا الأَساس هو المنطلق الوحيد للخروج من قوقعة الأَنانيات الفردية والقبلية القومية إلى صعيد اللقاء الإنسانى على أَساس مبادىء الحق والعدل والخير. وفى هذا الإطار التربوى النفسى ذاته عالج الإسلام النفس الإنسانية، إعدادا لها لتحقيق التعارف والتعاون فعالج آفاتها وأَمراضها الحائلة، دون التعاون، كالحسد والحقد

(١) الحجرات: ١٠.

(٢) رياض الصالحين ١٢١.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢١٢ وقال ابن كثير: عنه تفرد احمد ولا بأس باسناده.

والغل، التى تثيرها دوافع النفعية للذات الفردية أو القبلية أو القومية وتزيلها دوافع إرضاء الله والرغبة فى حسن ثوابه.

والنصيحة فى الإسلام، خلق إسلامى رائع، وأسلوب تربوى مفيد، ومفهوم من المفاهيم الإسلامية. والنصيحة أم الفضائل الإنسانية ربما لم يخل منها دين من الأديان السماوية. وقد ذكر القرآن الكريم أن الرسل قد نصحوا أقوامهم جاءَ فى شأن نوح عليه السلام مع قومه.. فقال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾[1]. وقال تعالى فى سورة هود: ﴿وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾[2].. وجاءَ فى سورة الأعراف فى شأن هود مع قومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾[3] وفى شأن صالح مع قومه جاءَ قوله تعالى فى سورة الأعراف أيضاً: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾[4].

وليس هناك أضر على الأفراد والجماعات، من تركهم فى تصرفاتهم الخاطئة دون تقديم النصح لهم.. لأن ذلك يؤدى إلى الاستمرار فى الخطأ، والوقوع فى الشر.. لذا أوجب الإسلام النصيحة كحق من حقوق المسلم على المسلم.. وجاءَ فى كتاب «دليل الفالحين شرح رياض الصالحين» أن النصيحة كلمة جامعة مهناها حيازة الخير للمنصوح له. وهى مأخوذة من نصح الرجل ثوبه إذا خاطه، وقيل مأخوذة من نصحت العسل إذا صفيته من الشمع، شبه تخليص القول من الغش بتخليص العسل من الخلط.. روى مسلم والبخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته فسلم عليه. وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد لله فشمته، وإذا

(١) الأعراف: ٦٢.
(٢) هود: ٣٤.
(٣) الأعراف: ٦٨.
(٤) الأعراف: ٩٣

مرض فعده، وإذا مات فاتبعه»[١]. ومن هذا المنطلق الإسلامى، صارت النصيحة أصلا من أُصول العلاقة فى كل مجال من مجالات المجتمع ولم يجعل الإسلام حدا للنصيحة، وصورة معينة، حيث ترك للمسلمين الوسائل التى تتحقق بها، وفق متطلبات الحياة، ومقتضيات الأعمال فقد تكون قولية أو فعلية وقد تكون صراحة أو ضمنا.. وقد تكون جملة أو تفصيلا.. وقد تكون مباشرة أو غير مباشرة.. ويرى العلماءُ: أن النصيحة بين المسلمين لازمة على قدر الحاجة إذا علم الناصح: أنه يقبل نصحه، ويطاع أمره، وأمن على نفسه المكروه، فإذا خشى أذى، فهو فى سعة.

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يبايعون الرسول ﷺ على النصح والتناصح، وقد بايع رسول الله ﷺ جابر بن عبد الله الصحابى الجليل على النصح لكل مسلم، جاءَ فى رياض الصالحين من حديث متفق عليه، عن جابر ين عبد الله رضى الله عنهما قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم» وروى مسلم والبخارى عن جابر رضى الله عنه أَن رسول الله ﷺ قال:

«دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض، وإذا استنصح أَحدكم أَخاه فلينصحه» وجاءَ فى كتاب الخراج لأبى يوسف، قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤْمن: إخلاص العمل لله، والنصيحة لولاة المسلمين، ولزوم جماعتهم فإن دعواتهم تحيط من ورائهم».. وروى مسلم عن أَبى رقية تميم بن أَوس الدارى رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال: «الدين النصيحة قلنا لمن؟.. قال لله ولكتابه ولرسوله ولأَئمة المسلمين وعامتهم»[٢].

والنصيحة لمن يطلبها يلتمسها عند أَهلها، ومن أَصحاب القلوب المؤْمنة والعقول الراجحة، والضمائر الحية.. فليس كل الناس سواءٌ. وللنصيحة أَغراضها

(١) الجامع الصغير ج ١ ص ٢٢٤. والحديث رواه البخارى ومسلم فى الأدب.
(٢) رياض الصالحين ص ١٠٢

سواءٌ كانت من الناصح أو المنصوح ولذا قيل لا تشر على مستبد، ولا على وغد، ولا على معجب، ولا على متلون.

وقال أبو الحسن البصرى الماوردى: «أعلم أن من الحزم لكل ذى لب، وأن لا يبين أمرا، ولا يمضى عزماً، إلا بمشورة ذى الرأى الناصح ومطالعة ذى العقل الراسخ.. فإن الله تعالى أمر بالمشورة، نبيه ﷺ مع ما تكفل به من إرشاده ووعد من تأييد، فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[1] فأمر بمشاورتهم ليستن به المسلمون ويتبعه فيها المؤمنون.

وإذا كان هذا هو أدب الإسلام للمسلمين فيما يطرأ بين الأفراد والجماعات من أمور تقتضى بذل النصيحة.. فإن كل ذلك جاءَ من أجل الحفاظ على وحدة المسلمين، وتكامل أخوتهم.. وأى توجيه وأى تهذيب، وأى دعوة، وأى تربية إلى الفضيلة والشرف أقوى من المفاهيم الإسلامية التى جاءَ بها الإسلام.. وإننا كأمة إسلامية لها تراثها الحضارى، وجغرافيتها المتميزة ومكانتها الهائلة، جدير بنا أن نعالج ما قد يحدث بالنصيحة والتناصح لنصل إلى خير ما قدر.

* * *

(١) آل عمران: ١٥٩.